ليلة النصف من شعبان

● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نحن الآن في شهر شعبان، مضى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم التي عظم الله تعالى شأنها في كتابه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ...﴾. [التوبة: ٣٦]

مضى رجب وجاء شعبان، ويأتي بعد شعبان رمضان، أشهر من أشهر الله تبارك وتعالى، ليس رجب شهر الله وحده، كما جاء في حديث لا يثبت ولا يصح: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي»[1] ليس هذا بصحيح عن النبي ﷺ، الشهور كلها شهور الله، والشهور كلها شهور الأمة، هو شهر الأمة لمن ينتفع به.

شعبان شهر كان النبي ﷺ يصوم فيه أكثر مما يصوم في غيره من الشهور، وكانت سنة النبي ﷺ كما رواها عنه أصحابه أنه كان يصوم حتى يقال: إنه لا

---

(١) هو حديث منكر وضعيف جداً، بل قال كثير من العلماء إنه موضوع، يعني: أنه مكذوب، فليس له قيمة من الناحية العلمية ولا من الناحية الدينية (فتاوى معاصرة للشيخ القرضاوي: ١/ ٣٨٤)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات بطرق عديدة، وكذا الحافظ ابن حجر في كتاب: تبيين العجب فيما ورد في رجب (كشف الخفا للشيخ إسماعيل العجلوني)، وانظر (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني) ص(٤٣٩) ط. دار الكتب العلمية ببيروت، بتحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وعبد الوهاب عبد اللطيف.

يفطر، ثم يفطر أياماً تطول حتى يقال: لا يصوم[1]، وكان أكثر ما يصوم في شعبان، كان يصوم أكثره، بل في بعض الروايات أنه كان يصومه كله، ولكن روايات أخر تقول: إنه ما استكمل صيام شهر قط غير رمضان[2]، وروى عنه أسامة بن زيد أنه سأله: يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان، قال: «**ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم**»[3]. كما صح عنه ﷺ أنه كان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، وفي بعض الأحاديث أنه سئل[4] عن سر الحرص على صيامهما فقال: «ذاك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، وأحب أن يعرض عملي، وأنا صائم». فالصيام يقرب العبد من الله تبارك وتعالى، ويجعله أهلاً لاستجابة دعوته وتقبل عمله.

من هنا حرص النبي ﷺ على كثرة الصيام في شهر شعبان، الذي يغفل الناس عنه بين رجب الشهر الحرام وبين رمضان الشهر المكرم، شهر القرآن، ومن هنا جاء فضل شعبان أنه يشرع فيه الصيام، وعلى من فاته شيء من رمضان، كأن كان مريضاً أو مسافراً، أو كانت امرأة فاتها شيء بحكم الدورة الشهرية في رمضان، عليها أن تتدارك قبل أن يأتي رمضان القادم.

يسأل كثير من الناس: هل يجوز قضاء ما فات الإنسان من رمضان في شعبان؟ نعم يجوز[5]، وإذا لم يكن قد قضى ما فاته خلال عشرة أشهر ماضية،

(١) ونص الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود: «كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم...» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣١٨، الحديث ٥٣٢).

(٢) فلعل المراد بها: أنه لم يكن يواظب على صيام شهر كامل إلا رمضان، أما غيره فربما أتمه، وربما أفطر بعضه، وانظر (فقه الصيام للشيخ القرضاوي ص١٢٤، ١٢٥).

(٣) رواه النسائي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٣١٨، الحديث ٥٣١).

(٤) سأله أسامة بن زيد رضي الله عنهما في حديث رواه أبو داود (٢٤٣٦)، والنسائي (٤/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٥) أجاب الشيخ القرضاوي عن هذا السؤال بالتفصيل في (فتاوى معاصرة: ١/ ٣٤٠ - ٣٤١).

فعليه أن يتدارك الأمر، ويقضي ما فاته في شهر شعبان، فإن أحداً لا يضمن عمره، وإن أحداً لا يضمن صحته، فالصحيح قد يمرض، والحي قد يموت، بل كل امرىء وكل نفس ذائقة الموت.

هذا هو شهر شعبان، أما ما جاء عن ليلة النصف منه، فقد وردت أحاديث ردها بعض العلماء جميعاً، وقالوا: لم يصح فيها شيء، كالإمام ابن الجوزي والإمام ابن العربي، وهناك من حسن بعض أحاديثها، كحديث معاذ بن جبل: «يطلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه، إلا لمشرك أو مشاحن»[1].

يطلع الله عليهم اطلاع رحمة ومغفرة، ينظر إليهم نظرة مغفرة وعطف، ونظرة إلى الخلق جميعاً دائم، وهو لا يغفل عنهم طرفة عين، ولا ينام عن عباده، إنما النظر هنا والاطلاع هنا، اطلاع رحمة ومغفرة وعناية خاصة.

يطلع عليهم هذه الليلة فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن، أما المشرك فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ...﴾ [النساء: ١١٦] وأما المشاحن: فهو الذين تكون بينه وبين أخيه المسلم شحناء، خصومة، عداوة، قطيعة، جفوة، هذا يحرم من المغفرة، يحرم منها في كل أسبوع.

في يوم الاثنين ويوم الخميس، أو ليلة الاثنين وليلة الخميس، حيث يغفر الله تعالى لجميع خلقه إلا من كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا... انظروا هذين حتى يصطلحا... أنظروا هذين حتى يصطلحا[2].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجالهما ثقات، وابن حبان في صحيحه، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣١٨ ـ ٣١٩، الحديث ٥٣٣).

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء،

هكذا في الموسم الأسبوعي، ثم يأتي هكذا في شهر شعبان في ليلة النصف، أي أن أبواب المغفرة موصدة، مغلقة أمام هؤلاء الذين لم يصفوا قلوبهم من الأحقاد، هؤلاء الذين لم يعرفوا معنى الصفاء والنقاء، الذين لا يدعون بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

سلامة الصدر من الضغائن والأحقاد أمر أساسي في الإسلام فالإسلام يقيم حياة الناس على أمرين: على أن يحسنوا صلتهم بربهم الذي خلقهم فسواهم، وعلى أن يحسنوا الصلة بين بعضهم وبعض، بحيث تقوم على الأخوة.. على المحبة، إن لم تقم على الإيثار: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾ [الحشر: ٩] كما كان الصحابة رضوان الله عليهم، وإن لم تقم على هذا المعنى العظيم الذي جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] إن لم تقم على هذا وذاك، فلتقم على سلامة الصدر من الحقد، من الضغينة، من الغل، من الحسد والبغضاء، داء الأمم من قبلنا، كما جاء في الحديث: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[2].

فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا» يعني: أخروهما، قال أبو داود: إذا كانت الهجرة لله فليس من هذا في شيء، فإن النبي ﷺ هجر بعض نسائه أربعين يوماً، وابن عمر هجر ابناً له إلى أن مات (المنتقى للقرضاوي: ٢/ ٧٢٩ ـ ٧٣٠، الحديث ١٦٦٦.

(١) رواه البخاري، ومسلم غيرهما عن أنس رضي الله عنه (المنتقى: ٢/ ٥١٤، الحديث ٩٩٨).

(٢) أخرجه أحمد والترمذي، وإسناده ضعيف، لكن له شواهد يتقوى بها، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٠، ونسبه البزار، وقال المنذري: سنده جيد، انظر (شرح السنة للبغوي، بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٣/ ١١٧، الحديث ٣٥٣٨) و(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧١٦، الحديث ١٦١٥).

هكذا علمنا النبي ﷺ وحذرنا، فلماذا يعيش الناس... لماذا يصبحون ويمسون ويضحون، وقلوبهم مليئة بهذه الأمراض؟ بهذه الأوبئة الفتاكة التي تعمل في قلوب الناس وأرواحهم أكثر مما تعمل الأمراض والأوبئة الحسية بالأجساد؟ إنها داء الأمم... داء المجتمعات.

ألا ما أجمل أن يعيش الإنسان نقياً صافياً! علام يتباغض الناس؟... على الدنيا؟ والله إن الدنيا لأهون من أن يتقاتل عليها الناس، الدنيا تسعك وتسع أخاك، فلماذا تضيق ما وسع الله؟ لن يأكل أحد رزقك، كما لن تأكل رزق أحد.

علام يتحاسد الناس؟... على الدنيا؟ وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة! فليت شعري على أن جزء من جناح البعوضة يتقاتلون ويتباغضون؟

يأتي الاثنين ويأتي الخميس، وتأتي الجمع والأشهر، ويأتي النصف من شعبان، ويأتي رمضان، والأحقاد كما هي، يغفر الله لمن يشاء أن يغفر لهم، ولكنه يؤخر أهل الحقد كما هم، أهل الحسد والبغضاء الذين لا تصفي الأيام سرائرهم، الذين لا تنقي الأحداث ضمائرهم لا يتسامحون... لا يعفون... لا يغفرون ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

لما فعل ما فعل بعض الناس ـ مثل مسطح وغيره ـ الذين أشاعوا الإفك عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقالوا فيها أسوأ ما يقال عن امرأة عفيفة طاهرة من بيت أكرم خلق الله، حلف أبو بكر رضي الله عنه أنه لن يعطف على هؤلاء... لن ينالهم شيء من فضله ورفده، وقد كان يعطيهم ويودهم ويبسط يده إليهم، ولكنهم قابلوا المعروف بالنكران، وقابلوا بالإساءة الإحسان، ولكن القرآن نزل يعلم المسلمين ما هو أعظم من غل النفوس، وغضب القلوب، نزل يرتقي بمستوى المؤمنين، فلا ينبغي أن ينزل أبو بكر إلى هذا الحضيض، وأن يعامل الناس بمثل أعمالهم، وجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

فلما نزلت الآية قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: بلى نحب أن يغفر الله لنا.

هذا درس ينبغي أن نتعلمه من ليلة النصف من شعبان، ومن يوم الاثنين والخميس، حيث يغفر الله تعالى لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء.

جاء في الحديث الآخر: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً»[1] كناية عن عدم قبولها، فلا ترتفع ولا تصعد إلى الله ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾ [فاطر: ١٠]، ولكن هناك أعمالاً ترد على أصحابها فلا تعلو، هناك شيء يجذبها إلى الأرض؛ لأنها من جنس طينها ملوثة، من هؤلاء الثلاثة: «وأخوان متصارمان» متقاطعان... متخاصمان، فانظروا كم يخسر الإنسان بخصومته... بعداوته.

لم يرخص لنا الشارع إلا في ثلاثة أيام، تنطفىء فيها ثورة الغضب، حينما قال ﷺ: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**[2].

لم يأت في ليلة النصف من شعبان تخصيصها بقيام، ولا تخصيص نهارها بصيام، ولا تخصيصها بدعاء خاص، وصلوات خاصة، كالتي رأينا الناس يفعلونها.

رأينا الناس من قديم يخصون هذه الليلة بالقيام، ونهارها بالصيام، ولم

---

(١) رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ١٨٢، الحديث ٢٢٩)، وتتمة الحديث: «رجل أمّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان».

(٢) رواه مالك والبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٢٨ ـ ٧٢٩، الحديث ١٦٦١).

يصح في ذلك حديث، ولا يجوز أن تكون الأحاديث الضعيفة والواهية مدركاً لمثل هذه الأعمال والتعبدات، فإن الأصل في العبادة المنع إلا ما جاء النص الصحيح الصريح بالإذن به، حتى لا يشرع الناس في الدين ما لم يأذن به الله، فكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

كنت أرى الناس في صغري يحتفلون بليلة النصف من شعبان، ويعتبرونها موسماً من المواسم الإسلامية، يذبحون فيها الذبائح، ويجتمعون في المساجد يقرأون سورة (يس) وليس لهذا أصل، ثم يصلون ركعتين بنية طول العمر! وركعتين أخريين بنية الغنى عن الناس! ويقرأون دعاء مليئاً بالتناقض[1]، ففيه: اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً أو محروماً أو مطروداً أو مقتراً عليّ في الرزق، فامح اللهم بفضلك شقاوتي، وحرماني وطردي، وإقتار رزقي، واثبتني عندك في أم الكتاب سعيداً مرزوقاً موفقاً للخيرات كلها، فإن قلت وقولك الحق في كتابك المنزل وعلى لسان نبيك المرسل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

وهذا كلام ينقض آخره أوله؛ لأنه يقول: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] أي: أن أم الكتاب لا محو فيها ولا إثبات، وفي الأول يقول: «إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً. فامح اللهم بفضلك شقاوتي» كيف يستقيم هذا الكلام؟! وأي دعاء هذا الذي يقول فيه: إن كنت فعلت كذا فامح كذا، أو افعل كذا، مع أن النبي ﷺ أمرنا إذا دعونا أن نجزم المسألة فقال: «**لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له**»[2]، لا ينبغي أن نقول: إن شئت... إن كنت كتبتني، لا، قل اللهم

---

(١) عرض الشيخ القرضاوي لهذا الدعاء وبين بطلانه وتناقضه بالتفصيل في فتويين له في كتاب (فتاوى معاصرة: ١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٣).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ٥/ ١٩٣، الحديث ١٣٩٢).

اغفر لي وارحمني واجعلني من السعداء.

وفي هذا الدعاء أيضاً يقول القائل: إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شعبان المكرم، التي يفرق بينها كل أمر حكيم ويبرم، وهذا خطأ، فالليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر كما جاء في سورة (الدخان): ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ [الدخان: ٣ ـ ٥]، والليلة التي أنزل فيها القرآن هي نفس الليلة التي قال فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١] وهي بالنص والإجماع في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ما أحوجنا إلى أن ندعو الله تعالى في كل وقت، ولكن ندعوه بالمأثور عن رسول الله ﷺ، وندعوه بما ورد به القرآن، وما أكثر ما ورد في القرآن من أدعية تنشرح بها الصدور، وتطمئن بها القلوب، كخواتيم سورة البقرة، وخواتيم سورة آل عمران، وأدعية الأنبياء وغيرهم من المؤمنين والربانيين في القرآن.

لم يرد في ليلة النصف من شعبان تخصيصها بشيء من هذا، كل ما ورد عن نصف شعبان حادثة عظيمة جرت فيه في السنة الثانية من الهجرة، وهي تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وكانت هذه أمنية رسول الله ﷺ، فقد كان قبل ذلك يصلي إلى بيت المقدس كما كان الأنبياء قبله يصلون، وكان وهو في مكة يحاول أن يجمع بين الأمرين، فكان يصلي بين الركنين: بين الحجر الأسود والركن اليماني، فتكون الكعبة أمامه ويكون أيضاً بيت المقدس أمامه، ولكنه تعذر عليه ذلك حينما هاجر إلى المدينة، فكان يتمنى من قلبه أن يوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم، باني البيت ورافعه، وابنه إسماعيل، والنبي ﷺ وارث ملة إبراهيم ومتبعها ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

كان يتمنى ذلك وينتظر الوحي، وينظر إلى السماء دون أن ينطق لسانه بشيء، أدباً مع الله تبارك وتعالى، حتى هيأ الله له ما أحب ورضي، ونزل في

ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] انظروا إلى هذا الحب: حقق له ما يرضاه في الدنيا، ووعده بإعطاء ما يرضاه في الآخرة، انظروا إلى هذه العبارة الندية في آية أخرى حيث قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥] وهنا قال له: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وجهه إلى القبلة التي كان يتمناها... إلى البيت الحرام... إلى قبلة إبراهيم عليه السلام.

وهنا ثارت ضجة، أثارها اليهود في المدينة، أقاموا الدنيا ولم يقعدوها: إن محمداً له كل يوم رأى، وكل يوم قبلة، كيف اتجه إلى الكعبة وكان من قبل يتجه إلى بيت المقدس؟ إن كان ما مضى باطلاً فإن صلاة من صلى قبل ذلك ضائعة، وإن كان حقاً فكيف غير هذا الحق اليوم؟ ونزل القرآن الكريم يرد على هؤلاء، نزلت آيات كثيرة تمهد لهذا الأمر، وتقرر أولاً حق الله تعالى في نسخ ما يشاء من الأحكام والآيات، كما قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾ [البقرة: ١٠٦].

ثم من ناحية أخرى حملت على هؤلاء السفهاء الذين ينتهزون أي فرصة لإثارة الشبهات واختلاق الأقاويل بلا علم ولا بينة، وردت عليهم فأفحمتهم، قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٤٢﴾ [البقرة: ١٤٢]، المشرق والمغرب لله... الجهات كلها لله تستوي صخرة بيت المقدس أو الكعبة في مكة، كلها لله عز وجل، الله هو الذي يخصص ويأمر، وإلا فالجهات مستوية، كما قال تعالى في نفس السورة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥] فهو سبحانه من حقه أن يخصص الجهة التي يريدها ويحبها لخلقه ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقد هدى هذه الأمة إلى أحسن الجهات، اختار لهم أفضل الأماكن... أول بيت وضع للناس ليتجهوا إليه، وليكونوا متعلقين بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وليجددوا ملته في

التوحيد ومحاربة الأوثان والأصنام.

ومن هنا ذكر القرآن هذه الوسطية... وسطية هذه الأمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فهم وسط في كل شيء: في الاعتقاد، وفي التعبد، وفي الأخلاق، وفي السلوك، وفي التشريع، حتى القبلة يقول عنها العلماء والباحثون اليوم: إن الكعبة البيت الحرام تعتبر وسط العالم، وسط الدائرة، مركز الدائرة، سرة العالم، هكذا أثبت الأستاذ حسين كمال الدين.

أما لماذا كانت الكعبة ثانياً وبيت المقدس أولاً، فهذا سر الابتلاء، ولهذا يقول القرآن: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

لا بد من امتحان كما حدث في الإسراء والمعراج، لا بد من تنقية الصف قبل مرحلة الجهاد المقبلة التي يواجه المسلمون فيها أعداء كثراً: الجبهة الوثنية، والجبهة اليهودية، والجبهة النصرانية، والجبهة المجوسية، وجبهة المنافقين، لا بد من صف مؤمن متماسك كالبنيان المرصوص، فلا بد من امتحان يميز الله فيه الخبيث من الطيب ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] المؤمن يقول: سمعنا وأطعنا، والمذبذب ينقلب على عقبيه لأدنى شيء، فهذا لا خير فيه.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] كان هذا التحويل شاقاً بما صحبه من تهاويل، ولكن الذين هداهم الله بالإيمان استقبلوه بنفوس مطمئنة، وعرفوا أن هذا من حق الله تبارك وتعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] الذين صلوا قبل ذلك نحو بيت المقدس لم تضع صلاتهم، صلاتهم كانت صحيحة في وقتها، ولو صلوا بعد هذه الآية إلى بيت المقدس لبطلت صلاتهم؛ لأن كل حكم صحيح في وقته، فإذا نسخ فلا يجوز أن يعمل به.

ثم بين الله تبارك وتعالى بعد ذلك أن المهم في الأمور كلها هو صدق التوجه إلى الله، البر الحقيقي هو بر العقيدة وبر الخلق وبر السلوك، ولهذا رد على اليهود الذين يقفون عند الرسوم والشكليات بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ما سر هذه الضجة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا بر العقيدة، وبر العبادة، وبر الأخلاق، وبر السلوك، إنه سميع قريب، ادعو ربكم يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إن همومنا نحن المسلمين كثيرة ومصائبنا شتى، ولا ندري ما المخرج من هذه المصائب التي تتوارد علينا؟ أصحبنا هدفاً لكل السهام، لكل النبال، تنوشنا من كل جانب.

القوى الكبرى تضربنا عن يمين وشمال، ومن شرق وغرب، الشيوعية متمثلة في روسيا تضربنا في أفغانستان، والرأسمالية متمثلة في أمريكا تضربنا ليبيا، والصليبية التي يعاونها هؤلاء وهؤلاء تضربنا في الفلبين مرة، وفي إريتريا مرة أخرى وفي فلسطين، وفي لبنان، عمن نتحدث؟ إنها مصائب كثيرة... إنها بلايا شتى، ما العمل؟ سنظل نضرب، وسنظل نطعن، وسيظل اعداؤنا يطمعون فينا ما دمنا متمزقين... ما دمنا متفرقين، الألف مليون لن تكون لهم قوة إلا إذا اتحدوا، الاتحاد يقوي القلة، والتفرق يضعف الكثرة.

ولا يمكن أن نتحد إلا إذا اتحدنا على الإسلام، لا وحدة لنا بغير

الإسلام، إذا لم نتناد بالإسلام منهاجاً وشريعة ونظاماً لحياتنا، وأساساً لوجودنا، سنفترق يميناً ويساراً وشرقاً وغرباً، هذا يوالي هؤلاء وهذا يوالي أولئك، وهذا قبلته هنا، وهذا قبلته هناك.

نريد القبلة الواحدة، نريد أن نتجه كلنا إلى الكعبة رمز التوحيد، نريد أن يكون قائدنا رسول الله ﷺ، نريد أن يكون كتابنا هو القرآن الكريم، نريد أن تكون شريعتنا ومنهاجنا الإسلام، بهذا وحده نتحد ونصبح قوة تنصر الصديق، وترهب العدو، وإلا فلا منجاة لنا، سنظل ندور وندور كالحمار في الرحى أو الثور في الساقية، والمكان الذي انتهينا إليه هو الذي ابتدأنا منه.

لا بد من عمل، والعمل الأساسي أن توحد هذه الأمة على الإيمان والإسلام، على أن تسير خلف رسول الله ﷺ، تلتمس القدوة وتلتمس الهدى والنور، وتتخذ كتاب الله أساساً لحياتها، ولا تتخذه مهجوراً، حتى لا يخاصمها النبي ﷺ ويقول: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، هذا وحده هو سبيل الخلاص، ولا سبيل سواه، هذا وحده هو طوق النجاة ولا طوق غيره، وبدون هذا لن تنتج المؤتمرات، ولا الاجتماعات، ولا البرقيات، ولا الاستنكارات، لن ينتج هذا كله شيئاً.

لا بد من عودة حقيقية إلى الله... أن نضع أيدينا في يد الله... أن ننتزع الأحقاد والعداوات، إن كان ضرورياً بالنسبة للأفراد، فكيف بأحقاد الجماعات والدول؟ لماذا هذه الأحقاد... داء الأمم... الحالقة التي تحلق الدين وتحلق الوجود كله؟ لا بد من عودة الأخوّة.... لا بد من عودة الصفاء ولا صفاء إلا بالإيمان، ولا أخوّة إلا بالإسلام.

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التقى، ونفوسنا على المحبة، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا

على أعدائك أعداء الإسلام، انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] . اللهم آمين وأقم الصلاة.

* * *

*